

نادى الشيطان

أطبق على الفضاء العريض ليل عريض ، تكاثفت ظلماته
وركب بعضها بعضاً ، حتى لتوشك الأيدي أن تلمسها ، وحتى
لتعجز أضواء النجوم أن تنفذ من بعضها ، وحتى لو رآها الناس
لأنكروها ، ولقال بعضهم لبعض : هذا آخر ليل تعرفه الأرض ،
أو هذا هو الليل الأبدى الذى لن تخرج الأرض منه ولن يمسه بعده
الضوء . ولكن الناس لم يروا مثل هذا الليل العميق الكثيف شيئاً ،
وإنما رأوا ليلهم كما تعودوا أن يروه ، يترقق فيه ضوء القمر ، وتتألق
فيه أشعة النجوم . ثم كأن عمق هذا الليل وكثافته لم يكفيا ليحجبا
السماء عن ذلك الفضاء العريض ، فإذا قطع من السحاب تُقبل من
كل صوب فى زجرة وزئير حتى تلتقى وتتعد ، فتضيف عمقاً إلى
عمق ، وكثافة إلى كثافة ، وكأن الأسباب قد قطعت فى هذا الرَدَح
من الزمان بين الأرض والسماء .

فى هذا الفضاء العريض القائم الذى لا تستطيع لغة الناس أن
تصف سعته وظلمته ، جلس إبليس لأعوانه ومشيريه من الشياطين .
وما هى إلا أن أقبلوا إليه خفافاً لطافاً ، كأنما كان يحملهم نسيم من
نار مظلمة . فلما اتهموا إليه وأطافوا به قال لهم فى صوت خفى :
« لقد علمتم ما ألمّ بهذه الأرض من خطب ، وما نزل بأهلها من
حدث ، وما كان من تحولهم عما ألفنا منهم منذ قرون ، فأشيروا » .
قالوا : « تكبرت أن نشير عليك ، وإنما منك الأمر وعلينا
الطاعة » .

قال مستخدياً : « ما غمضت على الأمور قط كما غمضت

على الآن . وما عُييت على الأنباء قط كما عُييت على الآن .
وما عودتكم أن أسألکم عن شیء أو أستشيرکم فی شیء . ولولا أن
الغيب قد حجب عنى لأول مرة ما دعوتکم ولا استشرتکم .

قالوا : « تكبرت ! لئن حجب الغيب عنك لهو أخرى أن
يحجب عنا . وإنا منذ الليلة لى ظلمة دامسة لم نعهد مثلها قط ،
وإنا لتحدث فما تكاد أصواتنا تبلغنا . ولولا أنك كبير فى نفوسنا
لأشفقنا ألا تبلغك أصواتنا » .

قال : « لا تراعوا ولا يخرجكم الفزع عن أطواركم ! فإن أصواتكم
تبلغنى كما يبلغكم صوتى . وما هذه الظلمة الدامسة إلا من عملى
وكيدى . فقد ألقى فى روعى أن من الخطر كل الخطر أن نشاور
أو ندير أمرنا بيننا دون أن نقيم بيننا وبين السماء حجبا كثافا » .

قالوا : « تكبرت أن يرد عليك رأى أو يخالف لك عن أمر !
فقل نسمع ، وادع نستجب ، ومر ننفذ إلى طاعتك أسرع مما
تنفذ السهام إلى رميتها » .

قال : « على رسلکم حتى يثوب إلى الرسل الذين بثتهم فى
أقطار الأرض ، وبعثتهم فى أجواز السماء ليعلموا لى علم هذا الخطب .
فما أرى إلا أن حادثا عظيما محقق بالأرض وسكانها » . وما أتم إبليس
هذه الجملة من حديثه حتى جعل شرر دقيق سريع ينفذ من هذه
الظلمات المتكاثفة فى قوة ، ويتبع بعضه بعضا فى عنف وازدحام ،
يأتى من كل وجه ، ويقبل من كل صوب ، حتى ريع الشياطين ،
وخيل إليهم أن السماء تمطرهم نارا .

قال إبليس : « ما أرى إلا أنكم قد فقدتم صوابكم ، وفارقم
أحلامكم ، وجعلتم تتراعون لغير رَوْع . ما إشفاقكم من هذا الشرر
وإنكم لترون فيه صور أنفسكم ! انظروا ! هؤلاء الرسل يقبلون من
أقطار الأرض ، ويهبطون من أجواز السماء ، يحملون إلينا أخبار
الأرض وأنباء السماء » .

وما هي إلا لحظة حتى عادت الظلمات إلى كثافتها ، وانعدت
كهيئتها قبل أن يقبل هذا الوابل من الشرر ، كأنما كانت قطعاً
من آدم أسود صفيق شقت لهذا الشرر حتى نفذ منها ، ثم انعدت
عليه تحوطه وتحميه . وما هي إلا أن يتمثل هذا الشرر أشخاصاً
خفافاً لطافاً لها أصوات خفاف لطاف كصوت إبليس ومن كان
حوله من الشياطين . وإذا أحدها يتقدم واجفأ خائفأ ، حتى إذا
كان من إبليس غير بعيد انحنى يظهر الطاعة والإكبار ، وقال في
صوت هامس كأنه هفيف النسيم : « تكبرت ! قد أفزعنا ورؤعنا
ورمينا بالشهب ، ورُدَدنا عن مقاعدنا من السماء ، فما لنا إلى استراق
السمع من سبيل » .

قال إبليس : « تعست ! لم تنبثنا بشيء لا نعرفه . فأين الرسل
الذين أرسلتهم يستقصون الأنباء ؟ » .

قال الشخص المائل : « تكبرت ، إنما أتكلم عنهم ، أنطق
بلسانهم . لقد انتشرنا في أجواز الجو من كل وجه ، وارتفعنا نحتال
في ذلك ما وسعتنا الحيلة ، وخلي بيننا وبين الارتفاع حتى غرتنا
الأماني ، وخيل إلينا أنه قد رُدَّ الشر عنا . وما نكاد نبلغ مقاعدنا

حتى تصبّ السماء علينا وابلا من شهب مهلكة . وما أدرى كيف
خلصنا إليك ؛ فقد احترق أكثرنا قبل أن يبلغ الأرض . وما أرى
إلا أن السماء قد أبتقت علينا لتنفذ إليك فنبلغك ما ألمّ بنا من خطب ،
وما نصب لنا من حرب ، وما هيّ لنا من نكاية وكيد .
قال إبليس : « فأين الذين أرسلتهم إلى أقطار الأرض يحملون
إلى أخبارها ؟ » .

قال قائل خفيف لطيف في صوت هامس كأنه هفيف النسيم :
« تكبرت ! ها نحن هؤلاء نُقبل عليك لا نحمل من الأنبياء
إلا ما يملأ قلوبنا هلعاً وجزعاً . لقد طرد إخواننا من أجواف الأصنام ،
وحيل بينهم وبين شهود الضحايا والقربان في هذا الوجه الذي تعرفه
من وجوه الأرض . ما يكاد أحد منهم يستقر في جوف صمّ من هذه
الأصنام إلا أخذه العذاب من كل وجه ، وضاق به هذا المكان
الذي كان يتسع له ، وأخذت عليه الطرق والمنافذ ، كأنما يدفع به
إلى الموت دفعاً . فمنا من كان ينفذ من أفواه الأصنام . ومنا من كان
ينفذ من آذانها ، ومنا من كان ينفذ من أنوفها ، نجد في ذلك أشد
الجهد وأشق العناء » .

قال إبليس مغيضاً محنقاً : « ويلكم ! إنما أدرككم الجبن ،
وأعياءكم الجهد ، وعجزتم عن الاحتمال . إنما تفرون من عذاب إلى
عذاب ، لن تلقوا عندي خيراً مما لقيتم هناك ! »

قال الشخص المائل : « تكبرت ! ما جينا ولا فشلنا ، ولكننا
آثرنا أن نأتيك بالأنبياء ، ونحن صائرون إلى ما تحب ، وعائدون

إن شئت إلى تلك الأصنام لتقيم في غير مقام ، ونستقر في غير مستقر ؛ فذلك أهون علينا وآثر عندنا من غضبك .

قال إبليس : « فأين النساء ؟ » .

قال الشخص المائل : « تكبرت اكن أشجع منا نفوساً ، وأقدر منا على الاحتمال ، فأثرن البقاء فيما يكتنفهن من ضيق ، حتى يبلغن أمرك ، أو يأتين الموت » .

قال إبليس : « ولم يحزكم ما رأيتم من صبرهن واحتمالهن ؟ ! » .

ثم سكت قليلاً ، ثم قال : « بم يدعوك هذا الحى من قريش ؟ » .

قال الشخص المائل : « يدعونى هيل » .

قال إبليس : « ويزعمون أنك أكبر آلهتهم ، فعد إلى مكانك

مدحوراً مخذولاً ، لأؤمرن عليكم النساء منذ الليلة ، ولأعقدن لواءكم للعزى » .

ثم عاد إبليس إلى صمته ، وإن الظلمة لتضطرب من حوله

اضطراباً شديداً ، كأنما جرى الخوف في طبقاتها ، فبعث فيها رعدة

غريبة تقشعر لها الأرض اقشعراراً . ثم قال إبليس بعد هنيهة : فأين

الذين كلفتهم أن يحملوا إلى من تراب الأرض ؟ » .

قالت أصوات مختلطة : « ها نحن هؤلاء » .

ثم جعل كل واحد منهم يذنو فيرفع إلى وجه إبليس قبضة من

تراب فيشمها ، ثم يشير إلى صاحبها أن ألقها فيفعل . حتى إذا دنا

منه أحد هؤلاء الرسل وقرّب إلى أنفه قبضة التراب التي كانت في

يده ، لم يكده يشم ريحها حتى أخذه ذعر شديد ، فنهض قائماً وهو

يقول في صوت المرتجف المغيظ : « هو ذاك ! هو هذا الوجه من بلاد العرب ، قد ألمّ به الحدث العظيم . هو هذا الحى من قریش ، قد فسد الأمر فيه علينا أشد الفساد » .

قالت الأصوات واجفة خائفة : « تكبّرت ! فإذا تأمرنا أن نفعل ؟ » .

قال : « سئى » . ولكنه لم يكذب ينطق بهذه الكلمة حتى صَعَق ، وصعقت الشياطين من حوله ، وانجابت الظلمة في أيسر من لحظة ، وأشرقت الأرض بنور عظيم وصل بينها وبين السماء ، ولصق الشياطين بأديم الأرض كأنهم ذرات من تراب ، وامتلأت أقطار الجو بصوت مهيب ، ولكنه عذب يقول : « ألا إن الكتاب قد بلغ أجله . ألا إن أحد قد نبى منذ الليلة » .

ثم ينقبض الضوء مرتفعاً إلى السماء ، ويتجرّد الليل القائم من ثوبه المشرق ، ويعود الفضاء العريض كهيشته حين كانت تطبق عليه الظلمة الكثيفة . وتمضى لحظات قد هدأ فيها كل شيء ، وإذا صوت خفيف لطيف كهفيف النسيم يضطرب في الجو قائلاً : « ويلكم ! هبوا ! فقد آن للجن أن ينصرف عنكم ، وأن لقلوبكم أن تبرأ من الفرق » .

وهذه الأصوات تنبعث من أديم الأرض كأن كل ذرة من ذرات التراب قد استحالت إلى شخص يسمع ويبصر ويتحرك ويريد . وهذا إبليس قد اتخذ مكانه من أعوانه ورسله ، وهو يلقى إليهم الأمر ، ويبعث فيهم النشاط ، ويوكلهم بأقطار الأرض ، ويأخذهم بأن

يكونوا أشدّ حذراً ، وأكثر احتياطاً ، وأعظم إغواء للناس . ثم يتجه إلى جماعة منهم قائلاً : « أما أنتم فاكفوني شر هؤلاء الأخبار من يهود ، وهؤلاء الرهبان من النصارى ؛ فقد أخذوا منذ حين يفقهون التوراة والإنجيل ، ويتحدّثون إلى عامة الناس بما لم يكونوا يتحدّثون به من قبل . فكفوهم عن ذلك ما وجدتم إلى كفهم سبيلاً ، واحملوهم على أن ينكروا ما عرفوا ، ويححدوا ما قالوا ، واملثوا قلوبهم زيغاً ، وعقولهم ضلالاً » .

ثم يلتفت إلى جماعة أخرى قائلاً : « وأما أنتم فارجعوا إلى حيث كنتم من هذا الوجه من العرب ، وليأخذ كل منكم مكانه في جوف صنمه لا يفارقه حتى يأتيه أمرى » .

ثم يلتفت إلى سرب آخر قائلاً : « وأما أنتم فبيتوا قريشاً من ليلتكم ، وليلزم كل واحد منكم رجلاً منهم نائماً ويقظان ، ساكناً ومضطرباً في الأرض . وإياي وأن يُفَلت منكم أحد من قريش ! واعلموا أن من أفلت منه صاحبه فلن يجد عندي إلا عذاباً تعرفونه ، وما تحتاجون إلى أن أذكركم به أو أدلكم عليه » .

وقد أخذت الظلمة ترقّ ، وقد أخذ السحاب يتفرّق وينجاب ، وقد أخذت أشعة النجوم تبلغ الأرض ، وقد أخذ ضوء القمر يتفرّق في الجوّ ، وقد خفت الصوت ، وسكنت الحركة ، واستقر كل شيء . ثم أصبحت قريش فغدت على أعمالها كأنها لم تنفق ليلة نادرة في ليالي الدهر ، إلا خديجة بنت خويلد ! فقد أقبل عليها زوجها مرتاعاً سعيداً ، ينبئها بالنبأ العظيم .

قال ابن سعد : « أخبرنا عليّ بن محمد ، عن سعيد بن خالد وغيره ، عن صالح بن كيسان : أن خالد بن سعيد قال : رأيت في المنام قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ظلمة غشيت مكة ، حتى ما أرى جبلا ولا سهلا ، ثم رأيت نوراً خرج من زمزم مثل ضوء المصباح ، كلما ارتفع عظم وسطع ، حتى ارتفع فأضاء لي أول ما أضاء البيت ، ثم عظم الضوء حتى ما بقي من سهل ولا جبل إلا وأنا أراه ، ثم سطع في السماء ، ثم انحدر حتى أضاء لي نخل يثرب فيها البسر ، وسمعت قائلاً يقول في الضوء : سبحانه ! سبحانه ! تمت الكلمة ، وهلك ابن مارد بهضبة الحصى بين أذرح والأكمة . سعدت هذه الأمة . جاء نبيّ الأمين ، وبلغ الكتاب أجله . كذّبت هذه القرية ، تعذّب مرتين ، تتوب في الثالثة ، ثلاث بقيت ، ثنتان بالشرق ، وواحدة بالمغرب . فقصها خالد بن سعيد على أخيه عمرو بن سعيد ، فقال : لقد رأيتُ عجيباً . وإني لأرى هذا أمراً يكون في بني عبد المطلب إذ رأيتُ النور خرج من زمزم » .

لاكلوزا

١٦ رجب ١٣٥٥ : سبتمبر ١٩٣٧